جهاد الأمومة

في يوم من الأيام قصصت على «آدم» قصة السور المخروم، تقول القصة إن هناك رجلًا أتى بابنه عند سور خشبي، وأعطاه صندوقًا من المسامير وشاكوشًا، ثم طلب منه أن يدق جميع المسامير في السور. انتهى الولد من مهمته، فأعطاه والده كماشة وطلب منه أن يخلع جميع المسامير من السور. سألت «آدم» في هذه اللحظة «كيف سيكون شكل السور بعد أن يخلع الولد المسامير؟» فقال «مخرم». قلت له إن هذا حال قلبي الآن، الاعتذار مثله مثل خلع المسمار من السور ولكن يبقى الخرم.

منذ سنوات عديدة، عندما كان «آدم» رضيعًا، قالت لي أم، قابلتها في حمام حديقة الأطفال، إن ابنها يُصَعِّب عليها حبه. وقتها لم أكن «مروة رخا» كاتبة مقالات المونتيسوري، كنت مجرد أم حديثة العهد بالأمومة تغير حفاضات طفلها في الحمام. أتذكر هذه الأم، وأنا أجاهد نفسي ألا أغضب على ابني. كنت أحاول بشدة ألا ألفظه مثلما أتقيأ طعامًا فاسدًا. في قمة يأسي وإحباطي، أسمع صوتًا بداخلي يقول بسخرية إنه كان من الأحرى بي أن أتبنى كلبًا بدلًا من جهاد الأمومة هذا.

الأمومة جهاد لا يتحدث عنه أحد ولا يعترف به أحد ولا يسمح به أحد. من تتحدث عن جهاد الأمومة تتهم بالبطر على النعمة أو تتهم بخلل في غريزتها. صورة الأم السعيدة، الراضية، الخاضعة، المعطاءة، المضحية إلى أبد الآبدين تحاصر كل أم في الحياة الواقعية لتجعلها تشعر بالقصور والنقص وجلد الذات.

لولا الهرمونات وتأثيرها على وضوح الرؤية لكانت الأمومة بكل بساطة، منذ بدء تكون الجنين، قصة حزينة عن كائن طفيلي ينمو داخل جسد سيدة ما ليجرده من عناصره وينخر في عظامه حتى يتضخم ويفجرها خارجًا تاركًا خلفه مخلفات جسد. يلتصق هذا الكائن الطفيلي بجسد هذه السيدة ليمتص دمه وقوته وصحته لأعوام طويلة. يستمر الجسد في خدمة الكائن الطفيلي حتى يستقل عنه.

جهاد الأمومة هو أن تحب هذا الكائن الطفيلي بدون أي شروط، بدون أي توقعات، بدون أي طلبات. جهاد الأمومة هو أن تقوض رغبتك الغريزية في الدفاع عن جسدك وعقلك وروحك ومنزلك ودخلك ومقتنياتك ضد كائن طفيلي محتل. إذا أردت أن تُسخر عبدًا خادمًا لك، أعطه من النوم والطعام والراحة فقط ما يبقيه بالكاد على قيد الحياة. أنهكه بالأشغال الشاقة، وبعد عدة أشهر، سيتوقف عقله عن العمل وسيكف عن مقاومة الذل وسينسى حقوقه وسيخضع لسيده. العقل والمنطق لا يجتمعان مع جسد مرهق في حالة صراع من أجل البقاء. جهاد الأمومة هو أن تحافظ على قواك العقلية وأنت تعيش حياة هذا العبد.

جهاد الأمومة هو جهاد دائم ضد التمرد على شخص لا يرضى ولا يشكر ولا يحمد ولا يشبع مهما قدمت ومهما فعلت ومهما أعطيت. أجاهد نفسي كل يوم ألا أتمرد على علاقة قائمة على الابتزاز والاستغلال باسم الأمومة. الآن وقد تحدثت عن جهادي اليومي لأكون أمًّا، سأعترف بأنني مثل كل أم، مصابة بـ«متلازمة ستوكهولم» حيث يحب العبد سيده ويتعلق المختطف بخاطفه ويرتبط الجسد بالكائن الطفيلي. أستمتع باحتياج الكائن الطفيلي لي وأستمتع بالألم الجسدي والنفسي وأستمتع بالضغوط المادية المفروضة عليَّ وأستمتع بكوابيسي التي يختلط فيها الماضي والحاضر والمستقبل وتطاردني أمنياتي ورغباتي لأستيقظ كل يوم ساعية لحريتي خائفة من الحصول عليها.

الأمومة ليست متعة خالصة وليست حالة دائمة من الانتشاء والحب. الأمومة مثلها مثل الحياة، الكثير من المشقة والألم والحزن، تتخللها لحظات، طالت أم قصرت، من المتعة. شم رأس رضيعي متعة. مراقبة استدارة رأسه متعة. تحسس جلده متعة. النظر في عينيه متعة. احتضانه متعة. مراقبته يكبر ويكتسب مهارات متتالية متعة. الإمساك بكفه الصغير متعة. مشاهدة أولى خطواته متعة. سماع كلمة «ماما» و«بحبك» متعة. كبر رضيعي وأصبح ولدًا يحاورني ويشاركني أيامي. الحديث معه متعة. التعرف على شخصيته متعة. حضنه لي متعة. صوت نفسه المنتظم أثناء النوم متعة. تأمله يركب الدراجة بعيدًا عني متعة. تأمله يسير نحوي حاملًا باقة من الأزهار قطفها خصوصًا لي متعة.

لقد قلت لكم، لحظات، طالت أم قصرت، من المتعة! أما ما بين لحظة ممتعة وأخرى فهو جهاد تلك الرغبة الملحة في الاستسلام! الرغبة في عدم استقبال صباح آخر! الرغبة في التقوقع في مكان مظلم حتى يطويني النسيان! الرغبة في التحليق من فوق الشرفة! الرغبة في الصمت الأبدي، السلام الأبدي، السكينة الأبدية، نقطة النهاية بعد الجملة الأخيرة في الصفحة الأخيرة من الفصل الأخير في الرواية الأخيرة.

قابلت شابات في مراحل مختلفة من الحمل. كن كلهن طاقة إيجابية وأحلامًا وتطلعات لرحلة أمومة مفروشة بالورد والياسمين. رأيتهن بعد الولادة، في بداية الرحلة، ورأيت تخبطهن بعد أن صدمهن الواقع وتحطمت أحلامهن على صراخ الصغير واحتياجاته اللانهائية. التقت أعيننا. رأيت ملامح الصراع وآثار الجهاد اليومي. شعرت بهزيمتهن، أردن ألا يصرخن في الطفل! أردن ألا يضربنه! أردن أن يقدمن له قلوبهن على طبق من ذهب! لم يستطعن! لقد هزمتهن الأمومة!

أما أنا، فلم أهزم بعد! ما زلت أجلس على شاطئ مهجور على الحدود بين الحياة والموت لأراقب تقلبات قلبي. ما زلت أرى صخور القاع وقد انحسر عنها الحب وتعرت مشاعر الاستياء والغضب والألم والرفض. أراني متحجرة متخشبة وقد جفت ينابيع الأمومة بداخلي. أنظر لطفلي فأتمنى أن يختفي، أو أن أختفي أنا! تنحسر الأمومة، تتعرى الصخور، يقول أحبك وكأنه يشعر بتراجع حبي، أنظر له وكأنني تعثرت على الحدود بين الواقع والخيال.

أراني أغرق كصخرة ضخمة وقعت من سماء الأمومة في محيط الحزن والذنب والندم. لا أقاوم. لا أصارع. أستسلم للغرق والاختناق على دموعٍ تحرق حلقي، أجلس على الشاطئ في انتظار المد والمدد، أراقب المياه المنحسرة تعود رويدًا رويدًا. تعود أمومتي وتفيض فتغطي صخوري التي يرتطم بها صغيري. أحتضنه وأشم رأسه ويديه. أقبل قدميه وأنظر بداخل زرقة عينيه، فأجدني وأجد حبه لي وتعلقه بي. يناديني محيط الحزن والذنب والندم كل ليلة، يزأر الغضب، ويثور البركان الكامن في قاع المحيط، يناديني وحش الخوف من الفقد، أستيقظ، أجاهد، أحتفل بالانتصارات الصغيرة وأستعين بحضن «آدم» على الكلب الأسود، كلب الاكتئاب الأسود!